إظهار عظمة الإسلام وغناه وإظهار مجده وثروته وأبهته ولا يخفى ما في ذلك من إرغام
الكفار وتكاريبه وإذلالهم وترهيبهم. فلا يصح الزعم بأنه لا فائدة فيه. أما حال الخالفين
هنا قيل في الجواب: إذا وصل البحث بالخالفين إلى هنا لم يجد هنا إلا أنه فقد هامه الأمر انتهى كل شيء
وذلك أن هذه الأفعال أفعال الاعتراف بأن القبر وصاحبه لا فائدة لها من هذه الأفعال والأعمال
لها؟ وإنما هي أشياء أريد بها إظهار ما للإسلام من غنى وثروة ومجد وعز. وخصائص أن تلك
كانت القبور محلاً لها فقط لا أكثر ولا أقل وهي حينما وضعت لم تقصد بها القبور ولا أصحابها ولم توضع
بوضعها مراعاة من وضعت تحوله قبورهم وعلى أجداثهم ولو أنها وضعت في المساجد أو في الطرقات أو في
أو في الصحاري والفلوات أو في ما شاء الله من المواضع والجهات لكانت النتائج هي النتائج والمقصد هو المقصد والغرض
هو الغرض. فالقبر إذن لا تخرج عنه أن تكون محلاً وخزانة لهذه الأفعال والأشياء. فإذا كان زعم
الخالفين هو هنا قيل: إن ما صنعتم باطل وقلتم باطل بوجوه وأمور لا تخفى ولا تعد
منها أنه لو صح هذا الذي ذهبتم إليه لكان من الجائز وله يدين ومن إعزاز الإسلام وإظهار غناه ومجده أن
تشاد القصور ويبنى من الذهب والفضة والجواهر ثم تلبس بالحرير والديباج وبأنفس الأشياء وأغلاها ثم
لا يراد بها إلا هذا الغرض المذكور والجهة الموصوفة. ولكن هذا لا يقوله عاقل ولا يذهب إليه مسلم
ومنها أنه لو كان حقاً ما ذكروه ووصفوه لما اختصوا القبور بذلك وحدها بل في المواضع الأخرى
والجهات والسبل الأخرى فإنه لا معنى للتخصيص حينئذ ولا وجه له. ولا يشك عاقل وأحد
في أن تشييد المدارس وبيوت العلم هذا التشييد إذا كان الغرض هو ما وصفوه وزعموه أولى من تشييد القبور
والأجداث. ومنها أن هذا الغرض لا يقصده أحد من الناس بهذه القبور هذه الأبنية والهدايا ومن يشيدونها
ويذهبونها ويفضضونها ويلبسونها الحرير والديباج وأغلى الأشياء ولا يتردد في صدر أحد منهم ولا في قصده
فكل من يقدم على شيء من ذلك لا يذكر هذا المعنى الذي هو إظهار إعزاز الإسلام وإعزاز أهله بإظهار غناه
وغناهم. ولا يخفى هذا على إنسان. ومنها أن هذا الإسلام وعزاهم وإظهار غناه وغناهم ليس في قوة
القبور وتجليلها بالذهب والفضة والحرير والديباج والجواهر ولله عزه وعزهم وغناهم وغناه إنما
يكون في جيوشه المظفرة المنتصرة التي لا يقف في وجهها شيء من البلاد والأقطار وعلى أعدائه
من الهاد والبغاة ثم في قهر خصومه وخصومهم وكبت أعدائه وأعدائهم... ثم في تطهير أرضه وأرضهم
من كل مفسد ومحتال... ثم في كثرة معاهده ومعاهدهم وعلم وعلمائه... ثم في إزالة كل بؤس وعوز وخلل
وحاجة من يتيم وأرملة وأيتام ومساكين وإيتاء ذوي المساكين وفقرائه... ثم في إيجاد الحياة
الصحيحة المرضية الراضية في كل مكان وعلى كل وجه وفي كل قلب وفي كل بيت. ثم في تهذيب الشعوب
وتهذيبها بأخلاق وفشو الثقافات الصحيحة والأخلاق القوية المتينة بينهم وفي سائر أنواعهم
وطبقاتهم. ثم في كثرة صناعاتهم وصادراتهم وآثارهم الدالة على وجودهم وحياتهم. ثم في كل
ما يدعو إليه كتابهم من سعة وجود وحياة وغنى... في هذه الأشياء كلها عز الإسلام وأهله وغناه وغناهم
وهيبتهم وهيبتهم. وفي تجليل قبور أنبيائهم وأوليائهم أو قبور جاليهم فما قام بالحرير والديباج
والذهب والفضة والجواهر بينما هم كلهم الأقلية التي يعيشون عيشة البؤس والحيوانات العجماء
بل عيشة هي أقل وأدنى من عيشة الحيوان من جميع الوجوه والجهات والأماكن. فأي عاقل يستطيع
أن يزعم أن زخرفة القبور وتشاهد بهذه الأشياء فيه عز الإسلام وأهله وإظهار لقناه وغناهم وكبت
وهيب لأعدائه وأعدائهم؟ ومن أين أن هذا الشيء قد زعم هذا وادعاه. زعم وادعى أن
في كسوة القبور وتشاهد وزخرفتها عزاً للإسلام والمسلمين وكبتاً وغيظاً لأعدائه والخالفين
ما قرمنا في وتحكم يا هؤلاء! في أي عصر أو مصر أو قطر دلت زخرفة قبور أهله وتجليلها
بالذهب والفضة والحرير والديباج والجواهر على عزهم وعز دينهم وعلى غناه وغناهم؟ وحتى
يا قرمنا ارهبت الأعداء والخصوم والخالفين بالقبور وبما فوقها من المساكن والزخارف؟ وحتى أن
الناس ارتد الخصم المفيد المهاجم عن بلد من البلدان وعن قطر من الأقطار رأى علم بأنه بأنه قبور
أهله مجللة بالحرير والديباج والزخارف المختلفة؟ وأي عدو زاد في عدد جيشه وعدده
رأى علم بأنه عدوه وخصمه بلد عدوه وخصمه ملأ بالقبور المزخرفة المكسوة بأنفس الأشياء
وأغلاها؟ أو لبس جلال الجاهلية الذين زعموا أن الأعداء المهاجمين
المفيدين يردون البلاد بقراءة الهوا البخاري وبقراءة الأوراد والأحزاب والأذكار